بقية من حديث الأربعاء (*)

النبوة ـ الوحى ـ المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كتب إلىّ كاتب فاضل من بيروت ، لم يتكرم بذكر اسمه كاملاً ، يستمدينى على مقال للدكتور فاضل نشر بمجلة « الأمالى » عنوانه « المعجزة » فسرها فيه تفسير الرافضين الاعتراف بالنبوة بمعناها عند المؤمنين .

وأنا لا أحب الجدل العلنى فى الصحف ، ولا أرتاح إلى نتائجه على النفس والحق وخصوصاً فى المسائل الشائكة التى يجب أن تمحص فى خفاء وهدوء بوجدان عدم التعصب للرأى ، وحب الغلبة أمام الجمهور . ولذلك لم أرد أن أناقش ذلك المقال مناقشة حرفية لأن الألفاظ عالم فظيع غير مضبوط الحدود ، وإنما أردت أن ألقى خواطرى حول هذا الموضوع الخطير ، وفيها يستبين رأيى وردى الضمنى على ما ورد بالمقال . وأرجو أن يكون فيما كتبت إرضاء « للعقل المؤمن والقلب العاقل » الذى كاتبنى من بيروت .

* * *

هل يقنع ناظر باحث فى حياة الإنسان العقلية والروحية الأولى أنه يجوز أن يترك الله الإنسان من غير أن يتصل به ويرشده ، ويبين له بعض ما خفى عليه وخصوصاً إذا كان هذا الخفاء حول أهم غاية فى الحياة العقلية والروحية ؟

هل يجوز أن يستمر الكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير إنسانية ؟

أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة ؟

هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا من أول رجل فينا إلى آخر رجل هذا الاحتجاب الثقيل ؟!

أيمكن أن يكون هذا من إله نرى رحمته وسعت كل شىء ؟

أيكون أوجدنا لتثبته بمنطق عقولنا فيقتلنا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه ؟

أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان فى طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل فى قضايا الوجود وما بعد الطبيعة ؟

ماذا يغنى العقل وحده وماذا يرشد إزاء هذه الألغاز والمعميات التى رآها الإنسان فى دور طفولته ؟ إنه لا يزال غير مغن ولا نافع عند كثير من الناس حتى فى زمن العلم والسيطرة على الطبيعة فكيف يغنى فى زمن الكهوف والأحراج والغابات ؟

كيف يغنى فى زمن الجهل المطلق بالنفس وبالطبيعة وفى زمن عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجعلان والخنفسان ؟

وماذا كان العقل فى تلك الأزمان ؟ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة من تجارب الحياة المحدودة التى كان يحياها الإنسان ، فكيف يقدر أن يستقل بأمر البت فى أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها ؟

إن الطفل لا يدرك فى أول أمره من أمه غير ثديها وهى تلقمه إياه ... ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضواً وشأناً شأناً حتى يدركها كاملة ... ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها . وكذلك الإلهية مع الإنسان ، ولله المثل الأعلى

هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من فى معناها تقول له قولها المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه ؟

أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذى هو أكرم ما فى الأرض يعيش هكذا وحده وخصوصاً فى عصور طفولته من غير أن يقول له قائل من وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد

ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يسير الأرض ويتولى الخلافة عليها ويسخرها لقلنا : لعل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش ... ولكننا لم نر سوانا خليفة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق ... فكيف يقصد وجودنا الخالق ثم يتركنا من البدء للنهاية من غير كلمة !

كلا ! لن يثبت العقل على رأى ثابت فى « الله » إلا إذا سمع صوتاً منه ... وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة ؟

كلا ! لن يؤمن الإنسان بأنه شىء ذو خطر فى الوجود إلا إذا قيل له ذلك من غير عالمه العقلى المستقل ...

كلا ! لن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن يسمع من يقول له : إحيَ ، واعمل ، واصبر ...

الإنسان ! ما الإنسان ؟ إنه كل شىء فى الأرض أمام نفسه

(*) انظر الأعداد ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ من الرسالة

وأمام الوجود الظاهر فكيف يهمل ويترك سدى من غير نداء حتى بعيد ؟

إن الإنسان نفسه كبير الرحمة في بعض أفراده الذين لا يستطيعون سماع استغاثة حي ذي كبد رطبة دون أن يبكوا رحمة له ، ويقولوا له : لبيك لبيك ... فما بال الرحمن الذي ثبتت رحمته ثبوتاً مخموساً تنظر إليه عقول عباده وقلوب الباكين الدائمي البكاء له السائرين في ظلام الحياة وآلامها ، اليقظين لكل فكر وحس وحركة في الوجود ، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على كفوفهم ، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات الميول يقولون له : « رب الحياة ! قل لنا كلمة واحدة : ما هو الحق ؟ قل لنا بصوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة حتى نجزم به جزم الحس مع جزم العقل ... .

إن جزم العقل وحده في هذه المسألة الكبرى لا يدخل الطمأنينة الكاملة التي لا بد منها في حياة الإيمان يا مولانا ! فاكشف لنا الحجاب ، واهتك الأستار ، وأرنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأجسام والأحجام ... » أقول ما بال الرحمن لا يسمع دعاء ممثلي الإنسانية الحائرة المقتولة بالشوق والشك المصروفة بالإفك ، فيقول لها بين فترة وأخرى كلمة فاصلة يشير لها بها إلى الطريق ما دامت هي التطبيع المقصود ، وما دام الاهتداء إلى الله هو المعنى الذي يصح أن يكون غاية الله من خلق الإنسان ؟

هكذا وقف قلب كل نبي نشأ في حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به شرارة الوحي ، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له : « من هذا الطريق ... »

هكذا وقف كل نبي في الظلمات وبكى ... بكى لكل شيء ... بكى للسماء والأرض والحجر والنجم والحي والميت وكل شيء ... وكل شيء ...

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمته يحتمان أن مثل هذا الباحث الحائر الباكي يجب أن يرحم ويخاطب ويغاث من لهفته وخصوصاً إذا احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد ، فأظن ظناً يقرب جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان : « لا بد لله أن يتكلم ! » أجل يحكمان على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكي من عدم الاهتداء إلى حقيقة نفسه وحقيقة الوجود ... ولن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة الفادح إلا إذا سمع هذه الكلمة ... ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول : « أُوحِيَ إليَّ » إلا إذا سمع حديث الله له ... وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب والكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً كما يقول « كارليل » فلا يستطيع أن يبني أمة ... « ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحي إليَّ ولم يوحَ إليه شيء ... »

* * *

تلك هي النبوة أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة وأنتزع حججها من صميم النفس الإنسانية منطقها ووجدانها وأحاسيسها . فكما أومن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكي تعطيهما وجودهما الجسماني أومن بأن الله أظهر للانسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحي ، وذلك كان في أول النشأة ودور الطفولة البشرية

إننا الآن نرضى بسمت الطبيعة الطبق اتكالاً على أن الله كلم بعض أفراد النوع في الزمان القديم . وأنا شخصياً أظن أنني ما كنت لأومن بفكرة ثابتة عن الله لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء ... وكأني أحس أن الله كلمني شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعي ...

أجل ! كيف أثبت على الإيمان به دائماً ما دام هو لم يأبه لي ولا لنوعي ؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالي هو به ؟

إن الله رحمة ... إن الله محبة ... إن الله كرم ... إن الله جمال ... كما تثبت ذلك صناعته في الخليقة فلا يجوز أن يكون قاسياً متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد !

إننا الآن في زمن رشد عقلي يلوح لنا أننا نستطيع أن نستقل بعقولنا في الاهتداء إلى الله وإلى الخير . ولكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التي كنا عليها ... حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ونرى الكون أمامنا كتلة مبهمة ومجموعة ألغاز ومعميات وأحاج ... حين كنا نعبد الحجر والبقر والجعلان والحنفسان ... حين كان العالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التي تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار . فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة في تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنساني على بساطته ؟ وما دامت غاية خلق الإنسان كما يحتمها العقل هي معرفة الخالق وعبادته فلا بد أن تتحقق دائماً وقصور عقل الإنسان في الماضي ما كان يسمح بتحققها فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده

إن الحركة العقلية العنيفة التي كانت في بلاد الإغريق لم تتقدم من الوثنية المنحطة . فالعقل وحده لا يؤمن بما يصل إليه ويصنعه هو إلى درجة الطمأنينة التي لا بد منها في منطقة الإيمان، والطبيعة الآرية صارت تبحث عن الله بالعقل المادي وحده فما اهتدت إليه إلا أفراداً قلائل . ومن قرأ صور الإله في أفكار كثير من فلاسفة اليونان من العدد إلى الماء إلى العقول السبعة إلى النار إلى آخر الفروض يرى أن العقل وحده حتى في بلاد اليونان لم يقدم الصورة الكاملة للإله كما قدمتها الروح السامية فقد بحثت عن الله في نفسها ووقفت تبكي له بقلوب أنبيائها وصهرتها الآلام وأضناها الإخلاص له إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه ويبكي ، فظهر لها فأيقنت بالحق والخير

وقد نجحت الروح السامية في إنقاذ البشرية من الوثنية وفي إعلاء شأن الإنسان وفي تعميم صورة الكمال الإلهي وفي سيادة الأرض . فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن تلك السيادة السامية المبنية على النبوة كانت عفواً وصدفة، ولا يمكن أن تكون حركة العقليين موازية لتلك الحركة الروحية ، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل ضئيلة لا تستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقاً . فلا بد أن يكون وراء الروح السامية سند من عالم الغيب

لا يمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة وبعد أن زال خوفه من قواها أيام كان يجهل أسرار تركيبها

ولذلك ختم الله الرسالة بمحمد وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج كما يعطي الأب ابنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته

تماماً هو قانون الأبوة مع البنوة فهو اطراد في سنن الكون، والطبيعة كلها متشابهة . النشأة العقلية العامة في الإنسان كالنشأة الجسمانية فيه

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية في جميع الأمم وأسلمها للانسان ووصاه وصيته الأخيرة وقال له : بلغت الرشد فأمامك الطبيعة ، وإلى لقاء في الدار الثانية التي يحكم بها عقلك وعلمك، فاستمد لتقدم إلى الحساب عما تفعله في النفس والمادة وقواها

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ومع أسرها؟ بلى، وإنه هو نفسه بشكل أوسع بين الشعوب المجموع الإنساني.

قد يقول قائل: إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل جداً من الناس؛ ولا يزال سكان أفريقية الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون بالقوى السحرية وعبادة الحيوان. فأين رشد الإنسان المزعوم؟

ولكن مع تسليمنا بذلك نقول إن التبعة ملقاة على عاتق الأمم المتعبدة بالروح السامية ، وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين من الحياة . ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية لجعل همه الأول هدم الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية . وقد وكل الله الشعب الأصغر القاصر إلى الشعب الأكبر الراشد ، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر في الأسرة الواحدة ... فإذا لم يراع الأكبر حسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصبًّا عليه . وستظل الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها كم ستكون تبعتها ثقيلة باهظة ، وجنايتها كبيرة غليظة، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية في المحيطات وكل الأمم الوثنية من غير حمل لها بالقوة على ترك عبادة الأوثان وعلى سمو الحياة الروحية

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية وأدوات الاتصال العلمية وسرعة الانتقال ، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على معان قريبة في الدين ، ولكن المادية الحالية هي الحائل وهي الشاغل ... وعلى أية حال لن تعمر الوثنية طويلاً بعد الآن

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها في حياتها الروحية نظراً للقصور العام ، ولكن ميراث الرسل المتروك والملخص في رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينقذون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية الصفراء وغيرها ... ولعلها رسالة مدخرة لأبناء محمد حين يتم نضجهم وكمالهم بعد يقظتهم الثانية هذه . فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن . وليس هناك أمة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل الروح كالأمة الإسلامية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

ويمكن لأي فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلم الكهنة والأوصياء في الزمان القديم . ويخيل إلي أن جمهود النبوات كلها كان موجها إلى تفهيم الإنسان